أفاق فكرية

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com

ص . ص 263 - 288

طبيعة العلاقات الاجتماعية بين المزابيين والآخر
من بداية القرن الخامس عشر ميلادي إلى نهاية
القرن التاسع عشر ميلادي.

طبيعة العلاقات الاجتماعية بين المزابيين والآخر من بداية القرن الخامس عشر ميلادي إلى نهاية القرن التاسع عشر ميلادي.

- **لطروش بلقاسم.**
- **جامعة وهران 2** .Jepense84@gmail.com

تاريخ الارسال : 2018/01/09 **تاريخ القبول:** 2018/04/06 **تاريخ النشر :** 2018/10/04

الملخص: يعالج هذا المقال طبيعة العلاقات الاجتماعية في مجتمع واد مْزاب من خلال الاتفاقيات الاجتماعية المبرمة بين المزابيين وجيرانهم من القرن الخامس عشر ميلادي إلى غاية القرن التاسع عشر ميلادي، وما هي العوامل التي ساهمت في تفكيك العلاقات الاجتماعية بين الطرفين. ونجاح المزابيين في إيجاد الحلول المناسبة للخروج من هذه الأزمة الاجتماعية بالتركيز على منح امتيازات لجيرانهم بهدف الحفاظ على الطرق التجارية كمصدر حيوي لبناء مدن مْزاب وتطورها.

الكلمات المفتاحية: وادي ميزاب، بني مزاب، الإباضية، الصراع المذهبي، القوانين العرفية، العلاقات الاجتماعية.

The nature of the social relations between the Mizabis and the other from the beginning of the fifteenth century to the end of the nineteenth century

Abstract : This article with the nature of social relations in the Mzab valley community through social agreements betvveen the Mozabites and their neighbors from the 15th century until the 19th century, and vvhat factors contributed to the disintegration of social relations betvveen the parties. And the success of the Mozabites in finding appropriate solutions to get out of this social crisis to their neighbors in order to maintain trade routes as a vital source of M'zab built cities and their development.

Key words Wadi Mizab, Bani Mzab, Ibadi, sectarian strife, customary laws, social relations

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 263 - 288
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com

مقدمة:

تعتبر العلاقات الاجتماعية العصب لاجتماعي لأفراد المجتمع وجماعاته بل حتى مؤسساته، ونظرا لما يمثله عنصر العلاقات الاجتماعية من أهمية في المجتمع؛ جعل الفرد في بحث دائم عن بناء علاقات اجتماعية ناجحة. إلاّ أنّ المجتمع غير المتجانس يجعل من التماسك والاتصال الاجتماعي تحدي كبير لأفراد المجتمع؛ بسبب تعقد علاقاتهم الاجتماعية الأفقية مع العلاقات الاجتماعية العمودية في الوحدات الاجتماعية الصغرى والكبرى، بالخصوص منطقة الجنوب الجزائري والممثلة في مجتمع غرداية. حيث كانت هذه المنطقة منذ سقوط الدولة الرستمية وهجرة الاباضية إلى ورقلة ومن ثم الاستقرار النهائي في مجتمع وادي مزاب وإلى يومنا هذا بؤرة توتر في العلاقة بين المزابيين والمالكية في جميع مدن وادي ميزاب، مما جعل مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية في مدينة وهران يعمل على مسألة الجماعاتي والمجتمعي في غرداية.

كما أن الرأسمال الاجتماعي الذي حاول الطرفين تشكيله من خلال التعايش الاجتماعي انتهى بالفشل بسبب الاختلافات المستمرة بين المزابيين والآخر، بمعنى الصراع بين الصف الشرقي والصف الغربي في وادي ميزاب، وقد تضررت شبكة العلاقات الاجتماعية المحلية بسبب تداخل عوامل عدة ساهمت في نشوب الفتن بين الطرفين، كانت تنتهي في غالبيتها بعدد من القتلى من الجانبين. ومن المفارقات الاجتماعية أن الصراع الاجتماعي بين المزابيين والآخر يشتد في مجتمع غرداية ويتلاشى نهائيا في الشمال الجزائري، أي أن النسق المحلي في غرداية أصبح يشكل تحدي قوي للمزابيين، وهذا ما دفع بالمحلي – بني ميزاب- للسعي لترميم العلاقات الاجتماعية مع الآخر، خاصة في مرحلة شح الموارد الاقتصادية لمجتمع وادي ميزاب، فرضت على الميزابي أن يخرج إلى التل لامتهان التجارة كمصدر رزق للقصور الميزابية في بداية العهد العثماني، والذي كان دائما (التاجر

ص . ص 263 - 288
رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com

الميزابي) محل أطماع لقطاع الطرق، فكانت القبائل العربية خير حليف لتأمين الطرق التجارية للقوافل الميزابية العائدة من التل، والمحملة بالسلع والثروة التي جمعوها من أسواق التل الجزائري . وعيله فإن إشكالية البحث هي: ما طبيعة العلاقات الاجتماعية بين الميزابيين والآخر ؟.

وللإحاطة بموضوع البحث جيدا، توجب علينا أن نطرح أسئلة فرعية على النحو التالي:

- ما هي العوامل الرئيسة التي ساهمت في ترسيخ الصراع بين الصف الغربي والصف الشرقي لمجتمع وادي ميزاب؟.
- ما هو أثر العلاقات الاجتماعية السلبية على النسق الاجتماعي لمجتمع ميزاب؟.
- ما هي الحلول التي اتبعها أعيان مجتمع وادي ميزاب لترميم العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع؟.

1- طبيعة العلاقات الاجتماعية بين الميزابيين وجيرانهم (الآخر):

لمعرفة طبيعة العلاقات الاجتماعية بين الإباضية وجيرانهم، اعتمدنا على السؤال الذي وجهه الشيخ علي يحيى معمر للشيخين "أبي اليقظان إبراهيم" و"باكلي عبدالرحمان"، وركزنا على إجابة الشيخ الأول، وكان الرد كالآتي:

فيرى أبو اليقظان أن العلاقة بين الاباضية وجيرانهم تختلف باختلاف المجالات التي كان يعيشون فيها، ففي المجال الاقتصادي تمر بين الفريقين أزمات فيها الكثير من المرارة والمشاكسة، قد تؤدي إلى الاغتيال والنهب والسلب والسرقة، بينما جيرانهم الاباضية يقفون في سائر الأحوال موقف دفاع. أما المجال الاجتماعي كذلك تنشأ أحيانا أزمات حادة قد يثيرها الاستعمار أو بعض المتعصبين ضد الاباضية، من الطعن في مذهبهم، أو في أفراد منهم بارزين فتنشأ ردود فعل هنا وهناك، ربما تتسم بانحراف أقلام المدافعين. وقد

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 263 - 288
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com

اشتدت هذه الأزمات النفسية في أواخر القرن 19 وبداية القرن 20، عندما ألب الاستعمار المسلمين بعضهم على بعض، وفي هذا السياق ظهر كتاب الشيخ اطفيش "إن لم تعرف الإباضية يا جزائري". (1)

إن الصورة التي يرسمها أحد أقطاب الفكر الميزابي عن العلاقات الاجتماعية بين الميزابيين والآخر، قد تجسدت بصورة دقيقة في فضائيين أساسيين هما الفضاء التجاري والاجتماعي، فتميز الأول باتباع أسلوب العنف من خلال السرقة والسلب والنهب وصولا إلى الاغتيال، وهذا يعود إلى التمايز الاجتماعي بين طرفي المجتمع الميزابي. أما الفضاء الاجتماعي فشمل التعصب الاجتماعي والديني اتجاه الميزابيين، وقد ازدادت شدة أزمة الصراع كما يوضحها رائد الصحافة الجزائرية أبي اليقظان إبراهيم في نهاية القرن 19 وبداية القرن 20، وهذا بسبب الصورة السوداوية التي كان يرسمها الاستعمار بين جيران مجتمع وادي ميزاب، بمعنى التمثل الاجتماعي الذي ترسخ في الفترة الاستعمارية ولاتزال آثاره إلى يومنا هذا.

2- الاضطرابات الداخلية والخارجية وإعادة تشكيل العلاقات الاجتماعية لمجتمع وادي ميزاب:

« يعود انقسام منطقة غرداية عبر التاريخ إلى صفين بسبب عامل تاريخي، إذ أن وادي ميزاب استقبل عددا كبيرا من النازحين من أنحاء مختلفة من شمال إفريقيا، فبعضهم قدم من جهة الشرق من سدراتة و ورڤلة وجبل نفوسة وواد ريغ وجربة...إلخ وهه يمثلون الصف الشرقي، والبعض الآخر قدم من الغرب من جبل عمور وبلاد بني مطهر ومن فقيق وسلجماسة ...إلخ وكونوا ما يسمى بالصف الغربي. وهذا الصراع كان بين الأصليين والوافدين» . (2)

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 263 - 288
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com

إنّ التشكيلتين الاجتماعيتين لمجتمع وادي ميزاب، و وحدادته الاجتماعية الصغرى التابعة للتشكيلتين، جعل المجتمع ينقسم إلى مجتمعين متصارعين هما: مجتمع الصف الغربي ومجتمع الصف الشرقي.

«أما الصف الغربي فيضم أولاد عمي عيسى والعفافرة والمذابيح من سكان غرداية، وأولاد موسى وأولاد يدر من بني يزقن، وأولاد عبدالله من سكان العطف وبونورة، وكافة سكان مليكة بما فيهم المالكية الذين أصلهم من متليلي، وأولاد علاهم وآل باله والعطاطشة من سكان القرارة. أما الصف الشرقي فيشمل من غرداية أولاد باسليمان والنشاشبة وأولاد يونس، ومن بني يزقن أولاد عنان، ومن العطف أولاد جلمام، ومن بونورة أولاد نوح وأولاد إسماعيل، ومن القرارة أولاد الزيت وكافة سكان بريان» . (3)

وهذا الانشطار في التركيبة الاجتماعية لمكونات المجتمع الميزابي مرده من جهة اختلاف العشائر الميزابية فيما بينها في بعض الأحيان، ومن جهة أخرى صراع العشائر الميزابية مع القبائل العربية التي نزلت إلى الوادي نظرا لحدائقه وأراضيه الزراعية الغناء والمياه. فلم تتوقف بذلك الفتن بين الصف الغربي والشرقي داخل النسق المحلي لمجتمع وادي ميزاب بل تجاوزه إلى المناطق الجغرافية المجاورة لمنطقة غرداية، وهذا ما يؤكده الباحث يوسف بن بكير الحاج حينما يقول: « هذا الانقسام إلى كتلتين ليس مقصورا على وادي مزاب، بل هو عام لجميع المناطق المجاورة، إذ أن الصف الغربي هم بنوا يفرن وبنو مرين ومغراوة ومن انضم إليهم بالمجاورة أو المصاهرة أو الفكرة من زناتة الشرقية. والصف الشرقي هم من اتحدوا مع زغبة من بني بدين ومن نضم إليهم كذلك» . (4)

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 263 - 288
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com

2-1-الاضطرابات الداخلية لوادي مزاب:

لقد تمكن الميزابيون منذ تبنيهم للمذهب الاباضي من كتابة تاريخهم الاجتماعي وتوثيقه بالقوانين العرفية؛ التي ساعدت كثيرا في إحلال السلم الاجتماعي في وادي ميزاب ولو لبرهة زمنية معينة، حيث نجد أن مجموعة القوانين بين الميزابيين والآخر تبين لنا بدقة طبيعة العلاقات الاجتماعية بين الطرفين عبر ثلاث مراحل تاريخية مهمة هي:

أ- الأحوال الداخلية في مدن وادي ميزاب قبل الفترة العثمانية:

يمكن أن نرجع هذه الصراعات الداخلية إلى أسباب متنوعة هي كالتالي:

- قساوة الطبيعة التي أثرت نفسيا على سلوكيات السكان، وجعلتهم يتصارعون فيما بينهم لأتفه الأسباب.

- الانحطاط الثقافي الذي كان يسود المغرب العربي عامة ووادي ميزاب خاصة، حتى أنهم لجأوا في بعض الأحيان إلى استقدام العلماء من مناطق أخرى كعمي سعيد الجربي.

- غياب سلطة تنفيذية رادعة كالشرطة وعدم وجود جيش نظامي يتدخل لاستتباب الأمن.

- حب السلطة والتملك لدى شعوب البربر.(5)

ب- الأحوال الداخلية في مدن ميزاب خلال الفترة العثمانية:

كانت الأحوال الداخلية في مزاب للعهد التركي أبعد ما تكون عن الاستقرار، فالفتن والحروب ما فتئت مشوبة بين المدينة والأخرى حينا، وبين القبيلة والأخرى في المدينة الواحدة، وهذه الفتن والحروب كانت تندلع لأتفه الأسباب.(6)

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 263 - 288
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com

« في سنة 990هـ/ 1582م قام الصف الشرقي بمباغتة الصف الغربي وقتلوا منهم ثمانين رجلا، وأُبعد الصف الغربي من غرداية لمدة أربع سنوات، كما استقدم الصف الغربي "المدابيح" لمناصرتهم والانتقام من الصف الشرقي» (7)

« وفي 1030هـ- 1621م استقبل أولاد مطهر في بونورة أولاد عبدالله الذين أُخرجُوا من مليكة. ثم وقعت فتن كبيرة بين العشيرتين أدت إلى إعلان الحرب من طرف أولاد مطهر ضد أولاد عبدالله وإلى تخريب الجزء الأعلى من بونورة والذي لم يعد بناءه بعد ذلك. وقد ساعد في هذه الحرب بنو يزقن أولاد عبدالله الذين كانوا يقيمون بالجزء الأسفل، وقد كان عندئذ سور يفصل بين القريتين ولكل منهما مسجدهما، أما أولاد مطهر فقد لجأ أغلبهم إلى مليكة». (8)

نجد من خلال النصين أن أحد الطرفين اعتمد على أسلوبين لفرض الهيمنة الاجتماعية على مدينة ما، من خلال أسلوب النفي وهو أحد أبعاد الاقصاء الاجتماعي، وأسلوب التحالف الذي سيؤدي إلى ظهور ظاهرة اجتماعية خطيرة وهو الانتقام، وبهاذين الأسلوبين هزل النسيج الاجتماعي وتفككت العلاقات الاجتماعية الأفقية بين عشائر مجتمع وادي ميزاب. وهذا من خلال استقدام القبيلة أو الصف المنتصر لقبيلة جديدة تحل محل القبيلة المنفية، بمعنى نشهد إعادة انتاج روابط اجتماعية جديدة داخل المجمع المصعبي.

بعد تأسيس "أولاد باخة" لمدينة القرارة، طلبوا من سلطان بني جلاب محاصرة قصر المبرتخ الذي يتواجد فيه عشيرة "أولاد نوح" مقابل مبلغ من المال، لكن بعد رحيل بني جلاب من المنطقة تصارع من جديد العشيرتان حتى تدخل "أولاد سيدي عبدالله" من الأشراف، فعُقدت هدنة بين المتصارعين لمدة ثلاث سنوات، استغل فيها "أولاد باخة" هذه الهدنة لبناء

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 263 - 288
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com

مدينتهم، ورحب أولاد باخة بأولاد سيدي عبدالله (العرب) في مدينتهم، ووقعوا معهم على اتفاقية في 1041ه/1631م تنص على ما يلي:

- السماح لأولاد عبد الله بتطبيق شعائره الدينية وفق مذهبهم بكل حرية.
- تقدم لهم وفق الاتفاقية 46/1 من الأراضي.
- الامتناع من المحاربة إلى جوار أعداء أولاد باخة.
- ضرورة الامتثال والخضوع للأنظمة العرفية للمدينة.

غير أنه بعد انتهاء الهدنة اشتعلت نار الحرب من جديد بين سكان القرارة وسكان قصر المبرتخ. وبعد أشهر من الاقتتال تمكن أولاد باخة في هذه المرة من الدخول إلى القصر وهدمه وتخريبه، فهرب الناجون من أولاد نوح والعفافرة إلى منطقة أخرى ليشيدوا بدورهم فيما بعد مدينة بريان.(9)

تميزت العلاقات الاجتماعية في الفترة العثمانية بالمصلحية، إذ كان تدخل الوسيط الاجتماعي والذي كان في الغالب يمثل عشيرة مثل أولاد سيدي عبدالله، قدمت لهم امتيازات مثل حرية ممارسة المذهب المالكي في مدينة القرارة بل حتى حصولهم على بعض الأراضي للفلاحة حسب الاتفاقية، وهذا من أجل استمالة الحليف وتشجيعه على التعاون وبناء علاقات متينة قد تصل في بعض الأحيان إلى حد المصاهرة. كما كانت المناوشات بين المتنازعين تنتهي ببناء مدينة جديدة مثل قبيلة أولاد نوح والعفافرة اللتين سوف تؤسسان مدينة بريان.(10)

وفي موقف آخر نجد أن المجتمع الميزابي حاول أن يقلل من المواجهات بين أفراد المجتمع، من خلال التركيز على أبسط السلوكيات الاجتماعية للمتجاورين كحمل السلاح الأبيض وشتم الآخرين وقطع الطريق على المسالمين، بل حتى سب الدين وزيادة

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 263 - 288
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com

قياس المياه المحددة لسقي الأراضي من طرف منظم السيل، من خلال تسليط العقوبة على الفاعل حسب درجة الخطأ المرتكب. بمعنى أي تصرف من شأنه أن يساهم في نشوب فتن بين أفراد المجتمع يجب أن يردع بنص قانوني، ولنفهم هذا جيد نقتبس النص القانوني لهيئة العزابة كالتالي:

اجتمعت عزابة خمسة قصور وادي ميزاب في شوال 1052ه. الموافق ل 1643م، واتفقوا على:

- على أن كل من يحمل الحديد (السلاح الأبيض) فغرامته عقوبة 25 ريالا، والذي ضرب به 50 ريالا مع النفي.

- النزاع حددت غرامته 25 ريالا. وللعارض بالعار أي بسبٍّ أحد ف 05 ريالات ذكرا كان أو أنثى.

- والذي عاقبته الجماعة (المجلس) بغرامة فلم يؤديها أو شجع أحدا بعدم تأديتها، فغرامته 05 ريالات.

- و الأمامة والحرفة، وهو أن يجعل له من يقطع عليه الطريق أو يسبب له بضرر، فغرامة المرسل 25 ريالا.

- كذلك الطاعن في الدين، أي سب الدين أو سرق فغرامته 50 ريالا مع النفي، وذلك سواء في القصر أي المدينة أو في الغابة (الواحة).

- ومن تعدى بزيادة الماء في الغابة على القياس الموجب له (القياس يوجد في مسجد كل قصر) فغرامته 25 ريالا مع النفي، ومن غضب من بني عمه وصار يشوش بين العشائر فغرامته 25 ريالا مع النفي، ومن أخذته الحمية عليه، له مثل ذلك ومن تسبب لبلد بجلب غرامة من الأمناء يخرج من رأسه وحده لا غيره.[11]

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 263 - 288
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com

ج- الأحوال الداخلية في ميزاب خلال الفترة الفرنسية:

تميزت العلاقات الاجتماعية بين عشائر مجتمع وادي ميزاب في الفترة الاستعمارية بالسلبية، حيث تحول سلوك الفرد من إخافة الآخر ونفيه إلى خارج المدينة إلى أسلوب القتل والتخريب وهدم ما بناه الآخر، وهذا التحول هو نتيجة الرواسب الثقافية والتصورات الاجتماعية السلبية بين أجيال الوحدات الاجتماعية (العشائر) لمجتمع وادي ميزاب. كما تم تقسيم عشائر الصف الشرقي إلى ثلاث عشائر مقابل ثلاث عشائر للصف الغربي، وهذا من أجل التحكم وفرض الأمن في المجتمع من خلال تعيين لكل صف مقدم يسير قضايا العشائر، وبين هاذين الصفين جاءت الحتمية الاجتماعية للوساطة الاجتماعية لدور القبائل العربية وعشيرة البلات في إحداث التوازن الاجتماعي بين الطرف إذا ما حدث خلاف بين إحدى عشائر الصفين، ويمكننا أن نكتشف هذا من النصوص التالية:

وفي 10 محرم 1236ه/ 1815م وقعت في القرارة فتنة كبيرة بين عشائر الشرق (الشراقة) وعشائر الغرب (لغرابة)، وفي جمادي الأولى 1238 هرب أهل الشرق إلى بريان، وبعد هذه الفتنة قسم أولاد باخة البلد إلى ثلاث عشائر مشارقة للصف الشرقي، وثلاث عشائر مغاربة للصف الغربي وجعلوا لكل صف مقدما، ولعبت عشيرة البلات والقبائل العربية دور التوازن بين الصفين في القرارة، وبقي هذا الصراع حتى 1853م حيث جاء الرائد "دوبراي" ففرض الأمن بقوة. (12)

وفي 1264ه- 1848م نفى أولاد علاهم شرفاء القرارة وأُرجعُوا عام 1267ه-1851م بتدخل شريف ورقلة محمد بن عبدالله إلى جانب أولاد س أمحمد. و بعد رجوعهم اتفق آل باله على طرد أولاد علاهم الذين لجأوا إلى بريان ثم عادوا منها خفية برفقة أولاد يحي والمخاليف وأهل بريان، فاحتلوا القرارة وقتل عدد من آل باله، وفر الباقي مع أولاد سي أمحمد عام 1268ه مما جعل محمد بن عبدالله يعود إلى القرارة من ورقلة ويحاصرها

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 263 - 288
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com

ويقطع أكثر من ألف نخلة ولا يفك حصارها بعد عشرين يوما إلا بأخذ غرامة ألفين ومائتي ريال. وقع ذلك في صيف 1852م- 1269ه.[13]

إن الاضطرابات الاجتماعية التي كانت تحدث في مجتمع وادي ميزاب لم تكن بسبب العوامل الاقتصادية والاجتماعية فقط، بل لعب الاستعمار حينما أخضع وادي ميزاب لسلطة الحاكم العام في 30 نوفمبر 1882م في تعميق الشرخ الاجتماعي بين عشائر مجتمع وادي ميزاب وهذا من أجل إضعاف روح التماسك والمقاومة ضد الاستعمار الفرنسي، ونجد هذا تجسد في بعض النصوص القانونية لقرى وادي ميزاب على النحو التالي:

اعتمدت فرنسا على أسلوب تأليب القبائل العربية على بعض المدن المزابية، وهذا ما حدث في 16 يناير 1867/ 1284ه حدثت فتنة قبائلية في غرداية، كانت الصبغة الوطنية فيها على جانب الصراع القبلي ظاهرة فاعلة، فقد امتد لهبها الأهوج إلى خارج غرداية، إذ ظهر نفر من بريان أحد الجانبين المتصارعين، فزحفوا إلى غرداية في هجوم مسلح، و كانت معركة هوجاء بين هذا الفريق الخليط من أحد طرفي غرداية و أنصارهم البريانيين❖ من جهة، و بين الفريق الآخر الخليط أيضا من المزابيين المقيمين بغرداية و نفر من المالكية المجاورين و المنتسبين إلى قبيلة المذابيح.[14]

« في عام 1868م أصدر الحاكم العام بالأغواط الكولونيل دوصونيس، قرار يخول فيه للمذابيح الساكنين بغرداية إحداث واحة لهم بضاية ابن ضحوة، على بعد عشرة كيلومترات من غرداية، واستغلالها وحفر آبار فيها. بهذا القرار الاستعماري أُبطل القرار الذي أصدرته جماعة غرداية عام 1073ه- 1662م، يمنع إحداث واحة أو بناء أو مسكن أو حفر بئر في الشمال الغربي لواحة غرداية، قصد وقايتها من البوار. تأكدت حكمة ذلك جليا في سنوات الجفاف التالية».[15]

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 263 - 288
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com

2-2-الاضطرابات الخارجية لوادي ميزاب:

لقد انتشرت الخلافات والفتن بين عشائر مجتمع واداي ميزاب حتى خارج المدن الخمسة، ووصلت إلى متليلي وحتى المناطق المجاورة كالأغواط ورقلة بل حتى منطقة التل، غير أن أسلوب الخلاف بين الميزابيين والآخر يختلف من المجتمع المحلي إلى المجتمعات المجاورة وصولا إلى مجتمعات التل الجزائري، وهذا باستخدام أسلوب الطرد والقتل والمعادات في المجتمع المحلي إلى أسلوب الرهائن من أجل التفاوض في المناطق المجاورة لمجتمع وادي ميزاب إلى الاعتماد الكلي على صناعة الصورة السلبية للتاجر الميزابي في مجتمعات التل. ونعتمد في هذا الطرح على النصين التاليين:

النص الأول: « إنّ شعانبة متليلي هم حلفاء للآل مليكة في ميزاب في القديم فوقع الخداع والتخاذل بينهما بما أدى إلى عقد اتفاقية تحالف عسكري واتخاذ رهائن حسما للخديعة وهذا في أكتوبر 712ه/ 1317م، وقد أمضى هذه الاتفاقية الشيخ "باسعيد بن بوباكر" من جانب الاباضية و"حفيز تامر ابن طولال" رئيس شعانبة متليلي، وفي مصدر آخر "أولاد تامر بن طولال" بالتبادل العائلي والرهائن، إذ بعث آل متليلي عشر عائلات من الشعانبة إلى مليكة فاحتلوا ربع المدينة في ناحية باب ابن الأطرش، وبعث آل مليكة بعشر عائلات إلى متليلي على حساب عائلتين لكل عشيرة من بني مطهر وبني خفيان بمن فيهم من بني خليل تحت رئاسة إبراهيم بن إبراهيم سعيد فاحتلوا ربع قصر متليلي في ناحية "دبونة". (16)

النص الثاني: « إنّ الصراعات المُحرضة من قبل مختلف المذاهب والتي لم تتوقف أبدًا منذ النصف الأول من القرن الهجري، تحولت عبر الأجيال اللاحقة إلى ضغائن والتي لم تُمحى من بعد في القرون التالة، غير أنها تأججت وتسممت أكثر فأكثر. فالجماعة الاباضية والتي ينتمي إليها المزابيين كانت أكثر تجريبا لهذه المحنة، بحيث أن الغالبية

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 263 - 288
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com

العظمى من المسلمين ترى في الاباضي ذاك البدعي الذي يجوز إبادته واضطهاده وكأنه مسيحي أو يهودي. وهذه الروح العدوانية انغرست في نفوس هؤلاء وأصبحت عقيدة إيمانية انتقلت من أب لابنه، حيث أن من بين المتحمسين لهذه الفكرة الذين هم في علاقة دائمة مع المزابيين مثل الأهالي الجزائريين». (17)

إن التمثل الاجتماعي لشخصية الميزابي من جانب الآخر لم تبقى في فضاء مجتمع وادي ميزاب، بل انتقل هذا التمثل إلى مدينة الجزائر العاصمة بالخصوص ومناطق التل الجزائري منها قسنطينة والمدية وغيرها على العموم، وتصوير الميزابي على أنه البدعي الذي لا يمكن أن يوثق فيه، وهو تعبير صريح عن تشنج العلاقات الاجتماعية بين المزابي والآخر في الفترة الاستعمارية التي غرستها تحريضات العسكري والإداري في بداية القرن العشرين، من أجل طرد التجار الميزابيين الذين تفوقوا على التجار اليهود في التل الجزائري.

وللاقتناع بالواقع يكفي الواحد منا أن يشاهد تصرف الشاتمين وبالخصوص أطفال الأهالي والذين هم قليلي المعرفة حينما يمر رجل ميزابي في شارع خال. إن هذه المواقف لا تمثل إلا مظهر خارجي لما تلقوه الأطفال من فهم مبالغ فيه عن الاباضي من قبل كبار السن خلال اجتماعات العائلة. إن هاته المشاعر لا تكون مع مرور الزمن إلا خوف من العدالة التي تثأر للمقهورين. فهم يظهرون عكس ما تخفيه مظهرهم الذي هو عنفي حينما يحين الظرف يعطي اعتقاد أن يقظة الحكومة يحتفظ به في الوقت المناسب مثال عن هذا في الحرب الكبرى، عندما أعلن متمردي عين توتة(باتنة) بعد ان أعتدي على الميزابيين واليهود والمسيحيين (؟) وبكلمة أتركوا إخوانكم المسلمين في سلام، إن تهديداتهم بتخريبهم حينما تدق ساعة تخليص المحمدية فإنهم يتجددون باستمرار في كل مدينة وقرية وفي كل مرة يُباشر خطاب بين عربي وميزابي من جديد. (18)

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 263 - 288
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com

3- العوامل الداخلية والخارجية لتشنج العلاقات الاجتماعية بين مدن وادي ميزاب:

3-1-الأسباب الداخلية:

• لقد شكّل عنصر الماء مصدر دائم للخلافات بين المدن، خصوصا عند استحداث سد أو سواق جديدة، مثل الخلاف الذي وقع بين مدينتي مليكة و غرداية، حيث يعود السبب في استحواذ أهل غرداية على نسبة كبيرة من مياه السيول، وهذا ما أكده أهل مليكة لماسكراي حينما سألهم عن سبب تواجد أراضيهم الفلاحية في متليلي مع الشعانبة، كما سألهم عما اذا كان بإمكانهم حل معضلتهم مع مدينة بنورة، فردوا عليه بأنهم يملكون بعض الوفاق معهم. أما عن بن يسقن، فقالوا بأنهم في خلاف معهم". (19)

"ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن ضاية "ابن ضحوة" تعتبر ممر رئيسي لمياه الأمطار إلى أودية وجنان ميزاب، فحدث في القرن السادس أن بنورة ومليكة أرغمتا غرداية التي توجد في عالية السيل على إنقاص دراع ونصف من علو السد الذي بناه آل غرداية، ونجم عن هذا أن سكان غرداية من جهتهم أرغموا المذابيح على تقليص مساحة الري من أجل الاقتصاد في الماء والاحتفاظ أكثر ما يمكن بالتخزين في الأرض، عملا بالتجربة التي دلت على أن الاستهلاك الماء في عالية الواد نقصان له في سافلته، وخزنه في عاليته ادخار له في سافلته. وعليه أصدرت الجماعة قرار بمنع إحداث واحة أو بناء مسكن أو حفر بئر في الشمال الغربي لواحة غرداية". (20)

• وكانت الأرض سبب مباشر في أسباب الصراع، وقد جاء في اتفاق لجماعة مدينة العطف ما يلي:« ليعلم من يقف بأن أهل تاجنينت اجتمعوا في المسجد تحت الصومعة، واتفقوا على أن إماتة أرض بيضاء في ليتمزان وذلك من حائط قناة السيل غابة كل بن يحي إلى الجبل المتعرض إلى الواد الكائن فوق نخلة الواد قبلة الواد وشرقه لا يذكر أحد ولا يقدر على إحيائها ما دامت الدنيا حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، وما ذلك

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 263 - 288
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com

إلا لإماتة البلاء والفتن والمشاجرة والمنازعة لمالح العباد ودفع الحاج بن يحي بن كلي وأخوه عيسى للجماعة من تلقاء أنفسهم ثلاثين ريالة لأجل ذلك» .[21]

• عدم ضبط الحدود بين العشائر: ويقصد بهذا عدم وضع قوانين في المنطقة، دفع ببعض العشائر في التدخل في شؤون العشائر الصغرى، ويمكننا استنتاج المعنى من إحدى الاتفاقيات الخاصة بمدينة بن يسقن جاء فيها ما يلي: إن العشيرة لا تخلط على أخرى في أحكامهم أو من الحق وحمايتهم، كل عشيرة على حدة ومن فعل ذلك فالحكم فيه من الطلبة والعوام.

• كما كان سبب الانتقال من عشيرة إلى أخرى، أحد مظاهر الاضطرابات التي زعزعت استقرار واد مزاب، ومثال ذلك موجود في عائلة آل مطهر التي كانت تنتقل بين بعض عشائر مدينة مليكة، فتسببت في حدوث صراع، وعليه جاء في نص اتفاق مجلس واد مزاب حول هذه القضية ما يلي:" وهذا أن أهل مليكة ادعوا على أن بني مطهر يرجعون من قبيلة إلى أخرى فتغير أهل مليكة بذلك ولم يصبروا لفعلهم فوقع بينهم من الهول حديث يطول ذكره".

• التنافس على المكانة الاجتماعية بين الهيئات العشائرية: ذكر القاضي بوفارة « أن أولاد باسليمان قاتلوا أولاد عمي عيسى وطردوا رجالهم من المدينة عندما كثروا في البلاد وتجبروا (...) وقع هذا في شهر شوال 1189ه الموافق ل: 1773م، كما وقع خلاف بين آل موسى وآل. عنان بسبب سعي كل قبيلة للسيطرة على حكم مدينة بن يسقن» .[22]

حدثت نزاعات داخل العشائر نفسها حول منصب المقدم، ربما لعدم كفاءته أو لأخطاء ارتكبها، مثل ما حدث في بني يسقن حول تغيير المقدم، حيث دفع الجماعة إلى إصدار ما يلي:" لما وقع الاختلاف العظيم بين بني يسقن وكاد أن يثير الفتنة بين الخلائق اجتمع عزابة خمسة قصور في مسجد بني يسقن فصالحوا بينهم بعد اتفاقهم على أمور

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 263 - 288
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com

منها: أن من مشى إلى المقدم الذي قدموه لينزعوه من التقديم من غير خمسة رجال الذين قدموه يحكم فيه العزابة بحكمهم والعوام بحكمهم، وإذا اشتكى به أحد فليرفع أمره إلى الخمسة فينظرون في أمره فهم الرقباء عليهم وهو أمانة في رقابهم وحسابهم على الله".[23]

•الجهل والتعصب القبلي:

عاشت القرارة سنوات من الفتن، حيث كانت الفتن تثور بين عشيرة وأخرى لأتفه الأسباب، ولعل أشدها الصراع والمنافسة على تولي القيادة في القرارة، فكانت العشائر الكبيرة عددا ترى أن القايد يجب أن يكون من أبنائها ولا تستوعب الرضوخ والطاعة لقايد من عشيرة أخرى منافسة، ومن ذلك أدرك القراريون❖❖ مآسي الجهل والتخلف وما نجم عنه من الفتن مزقت وحدة القرارة في مرحلتها الأولى.[24]

• التنافس التجاري: كان خروج المزابيين من الأغواط في أوائل القرن الحادي عشر الهجري بسبب التنافس التجاري، وهذا بعد أن نزحت عشيرتي أولاد باخة والعفافرة من غرداية إلى مدينة الاغواط واستوطنتا بها، وقد كان لهم نشاط كبير في التجارة والفلاحة والبناء، فتحسنت بذلك حالة الاغواط وانتعشت اقتصاديا وعمرانيا وثقافيا، فحدث عن هذا احتكاك وتنافس بين السكان أدى في الأخير إلى مضايقة المزابيين والتماس اخراجهم بأي وسيلة كانت.[25]

3-2-الأسباب الخارجية:

• تزايد توافد الجماعات الاجتماعية إلى وادي مزاب:

لقد اتخذت مدن مزاب القبائل البدوية حليف اقتصادي وسندا قويا لها من جهة، وتشاركها في صراعاتها مع بعضها البعض من جهة أخرى. وفي بعض الأحيان كان النزاع يقع بين القبائل من جهة ومدن ميزاب من جهة أخرى.

ص . ص 263 - 288
رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com

ويمكننا هنا أن نقدم أمثلة هنا حول تحالف أولاد عمي عيسى مع القبيلة العربية البدوية المسماة بالمذابيح، كما دفعت مرحلة جفاف قاسية عرفها وادي مزاب في نهاية القرن 14م بقبيلة بني مرزوق إلى الدخول في تحالف مع مدينة غرداية والانضمام إلى عشيرة أولاد الحاج مسعود، حيث خصص لها حي سكني داخل أسوار المدينة في نهاية 1429م، في المقابل تعهد بنو مرزوق بدفع سدس ما يخيطون من قندورات، والتعهد بالدفاع عن المدينة عند أي هجوم من البدو وبناء مسجد واحد يكفي للصلاة للجميع.

وفي تفصيل آخر للتحالف استقرت قبيلة "العطاطشة" في مدينة القرارة فأصبح لها "أولاد سيدي عيسى" حليفاً في الصف الغربي، و"أولاد سي محمد" حليفاً في الصف الشرقي. واستقر في مدينة بريان قبيلة "أولاد يحيى"، حيث وقف "مخاليف الغرب" و "أولاد محمد الغطافة " مع الصف الشرقي، ضد الصف الغربي المتحالفين مع " الشعانبة"، أما في العطف نجد نزول أولاد يعقوب في عشيرة أولاد الحجاج بعد أن نزحوا إلى وادي مزاب من منطقة آفلو(...) وتوافد آل بوستة في عشيرة أولاد باكة.[26]

4-أثر العلاقات الاجتماعية السلبية على النسق الاجتماعي لوادي ميزاب:

أثرت الفتن على العلاقات الاجتماعية كثيرا داخل المجتمع الميزابي، كما أن العلاقات الاجتماعية السلبية أثرت بدورها على النسق الاجتماعي لكلا الطرفين المتصارعين؛ وهذا من خلال أربع مستويات أساسية هي:

أ- استرجاع الفضاءين الخاص والعام للمزابيين:

رأت جماعات المدن الميزابية أنّه وبعد الفتنة التي تسبب فيها الفاعلون سواء عرب أو بني ميزاب، يجب أن تسترجع الفضاءات الخاصة مثل المحلات التجاري أو منع الآخر من شراء أو امتلاك أراضي، أو حتى العبور في طرق عامة تابعة للمدن الميزابية وهذا بطرده

ص . ص 263 - 288
رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com

خارج أسوار المدينة مع العقوبة. ونجد هذا في النصوص العرفية. إذ فرضت عقوبة على كل من يدخل المدينة مالكيًا، وتطبق عليه العقوبة بالقوة من خلال طرده من المدينة، لأنه خرق القانون الخاص بمنع ادخال الأجانب، وكان هذا في 1143ه أي ما بين 17 جويلية1730م و01جويلية 1731م".[27]

وفي اتفاق جماعة غرداية 1180ه/1766م جاء فيه: بما أنه من الصعب اخراج غير الاباضية من المنازل التي سكنوها منذ مدة طويلة، تقرر إعطاء هؤلاء الخيار بين تحويل هذه السكنات الى مخازن للسلع، وعدم استغلالها للسكن، أي يتم تحويلها الى أغراض اقتصادية أو بيعها للإباضية مقابل السعر الذي يريدونه. واصدار هذا القانون يمنع شراء أي منزل للسكن، وأي عملية بيع تعتبر ملغاة، أما البائع أو كاتب العقد والشهود يخضعون لعقوبة العزابة والعوام، مهما كان الشيء المباع منزلا أو متجر، ومن آلت اليه ملكية عن طريق الوراثة، تباع ويقدم له مقابلها نقدا، والثمن يقوم بتحديده أشخاص عدول.

و في 1198 ه/1784 ما أقرت جماعة بن يسقن بأن العربي" إذا أراد أن يخرج أو يسافر، فانه لا يمر في الوادي وانما ذلك يمر تحت الجبل من القبلة الى الجوف. وانه انما يبني بيته في الفحص ولا يبنيه في الوادي ولا في الغابات تحت أملاك الناس ونخيلهم ولا يسرح جديانهم ومعزهم فيها ذكر". [28]

ولما اشتكى العزابة من الأضرار التي لحقت بهم، واشتكى المذابيح من ازدياد عدد أبناء عمومتهم الذين التجأوا الى المدينة، والذين شكلوا احراجا متزايدا مع مرور الزمن. تقرر ما يلي: بيع منازل غير الاباضية التي تم بناؤها بعد اصدار قانون منع الامتلاك الأجنبي، والاحتفاظ بالمنازل التي تم بناؤها قبل ذلك، للإقامة بها أو تأجيرها لبعضهم البعض. وبسبب تعاظم الأضرار وتجنبا للمصائب التي قد تنجر عنها، تم اصدار هذا المنع في بداية القرن الحادي عشر الهجري".

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 263 - 288
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com

ب- الاتصال الاجتماعي:

يشكل الاتصال الاجتماعي حتمية اجتماعية على الجماعات الاجتماعية من أجل التعايش والتكيف مع الأوضاع الاجتماعية الجديدة، ولضبط وسائل الاتصال بالأجنبي عن المدينة حتى لو كان حضريا، جاء في اتفاق جماعة بن يسقن 1296ه /1878 م ضرورة قطع التحالف السياسي مع الأجنبي عن المدينة على النحو التالي:"(...) انه من باع سلاحا أو رصاصا أو غيرها آلات القتل لبدوي أو لبلدي غير بلدهم أو اشترى له أو اشترى منه أو اجتمع مع أحد ما بلا مشورة أهل البلد، فان الحكم يجري عليه بما يظهر لهم من حبس أو جلد". (29)

ج- تأثر رابطة القرابة بين الاباضي والمالكي:

وفي اتفاق آخر "اجتمع مصابيح غرداية طلبة وعوام قرروا تسليط عقوبة على كل من يدخل المدينة مالكية تحمل معها احدى قواعد المالكية". ومن هنا يظهر أن الزواج مع امرأة مالكية غير اباضية، لم يكن في اطار التحالف مع القبائل المستقرة داخل أسوار المدينة من مدن مزاب- باستثناء حالة مدينة مليكة مع قبيلة الشعانبة- بل كان الأمر يحدث بشكل فردي بحيث قد يحدث أن يحمل أحد المزابيين المهاجرين في احدى مدن التل زوجة مالكية قد تزوج بها هناك لتعيش معه. (30)

لقد خالف هنا الميزابيون مبدأ من مبادئ المذهب الاباضي؛ الذي يقر ويدعم زواج الاباضي من مخالفيه. وهذه المسألة خارج نسق وادي ميزاب أي في التل مثلا حتى وإن تزوج المزابي بمالكية وقرر أن يستقر في وادي ميزاب فعليه أن يفرض على زوجته أن تتبع المذهب الاباضي وإلا لن يكون مرحب به في المجتمع المحلي، أو يفضل المكوث في الغربة ويعيش هناك بعيد عن أهله.

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 263 - 288
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com

د- تفكيك النسق العشائري لمجتمع وادي ميزاب:

وكثيرا ما كانت تلك الفتن والأحداث تتسبب في تشتيت أسرة وتفريق عائلة واحدة إلى جهات مختلفة، فيقصد بعض دون وعي ولا تخطيط مكانا، ويقصد الأخرون أيضا بدون وعي ولا تخطيط ولا اتفاق أمكنة أخرى، وقد سبق أن أشرنا إلى بعض الفتن والحروب التي وقعت في وادي ميزاب أو في ورجلان، فتشتت بذلك أسر، وقطعت وشائج أرحام، وضاعت نفوس كريمة بين الحل والترحال، وهي تلتمس مأوى آمنا تستكن فيه، وموطنا يسوده السلام لتستقر بين ربوعه ومغانيه".[31]

4-التحالف وتجديد رابطة العلاقات الاجتماعية بين أفراد مجتمع وادي ميزاب:

لقد تيقّن الميزابيون أن الاستمرار في الخلافات بين الصفين، سوف تكون له نتائج سلبية على الجانب الاجتماعي والاقتصاد الميزابي، بالخصوص التجارة الخارجية في المناطق المجاورة ومنطقة التل الجزائري، مما فرض عليهم التحالف مع القبائل العربية كاستراتيجية لحماية المدينة الميزابية من الهجمات الخارجية من جهة، ومن جهة أجرى ضمان وصول القوافل التجارية الميزابية القادمة من الشمال بسلام؛ لأنهم وجدوا أنفسهم لم يطوروا مدنهم أثناء صراعهم مع الآخر.

وقد حاول المزابيون أن يدفعوا عنهم هذه الغوائل، و أن يضمنوا لأنفسهم حياة سلم و هدوء، فعمدوا إلى عقد اتفاقيات توشك أن تشكل نوعا مما يعرف اليوم بمعاهدات حسن الجوار و تأمين المواصلات و التبادل التجاري، وما إلى ذلك مما يراد به تأمين الاستقرار و التعايش السلمي و التعاون الاقتصادي كالتي عقدت بينهم و بين قرية متليلي البعيدة حوالي ثلاثين كلم، و كالمعقودة بينهم وبين قرية الأرباع، هي قبيلة من قبائل الاعراب الرحل شمال مزاب الراحلة و غيرها من القبائل التي تنزل حينًا حول شبكة مزاب، إذا

ص . ص 263 - 288
رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com

أسعفتها الطبيعة بشيء من الخصب أو تمر بها قوافلها إلى الشمال أو إلى الجنوب ابتغاء الانتجاع أو الاتجار.[32]

لم يكتفي الميزابيون بعقد التحالفات مع القبائل العربية فقط، بل وطّدوا الرابطة الاجتماعية معهم من خلال إسكان بعض القبائل داخل أسوار المدن الميزابية، حتى يكوّنوا معهم عصبة ووحدة اجتماعية متماسكة ضد الآخر. أي الحصول على حماية اجتماعية. وهذا ما نجده في اتفاق جماعة غرداية1209ه- 1795م أن:« (...) المذابيح وآل يعقوب استقروا بغرداية حيث كانوا يعيشون ويتبعون بني مزاب، وواضح أن العرب البدو قد دخلوا أسوار مدينة غرداية واستقروا بها، ولازال لحد اليوم يوجد بالمدينة حي يحمل اسم" بني مرزوق" نسبة الى القبيلة العربية المذكورة ».[33]

« واستعان شعانبة برزقة بسكان مليكة. وعقدت اتفاقية بين الطرفين سمحت بهجرة عشرة عائلات من مليكة إلى متليلي تحت رئاسة إبراهيم بن سعيد استقرت في ناحية "دبونة" لتعمير القصر والواحة، فبنوا مسجدا إباضيا على النمط المزابي، بقي على ذلك الشكل وتحت تصرفهم إلى غاية 1946م حيث أعيد بناؤه وبناء مئذنته على الشكل الحالي. وقد تكون هذه الهجرة تمت في نهاية القرن التاسع الهجري.

و مما تضمنته الاتفاقية أن السيادة والسلطة في قصر متليلي لإباضية مليكة، ولهم الحق والحرية في التعامل مع غيرهم من غير تدخل الشعانبة. كل رعايا الشعانبة في متليلي يدفعون إلى الإباضية في القصر ضريبة سنوية قيمتها شاة واحد على الشخص مع ما تنتجه من صوف وسمن. ولضمان تطبيق بنود هذه الاتفاقية تم تحويل عشر عائلات من متليلي وإسكانها ناحية باب ابن الأطرش.[34]

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 263 - 288
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com

وبالرغم من حصول بعض القبائل العربية على امتيازات داخل المجتمع الميزابي، إلا أن التاجر الميزابي رأى أن يكافئ الحليف العربي حتى في منطقة التل، عرفانا بالتضحية التي يقدمها هذا الحليف للحفاظ على ماله ونفسه، خلال رحلات السفر إلى الجزائر العاصمة وغيرها من مناطق التل في الشرق الجزائري وشماله. وتجسد هذا الامتياز الإضافي للآخر في عام 1050ه- 1640م، حينما عقدت جماعة كبيرة من تجار قصر البخاري والمدية والبليدة والجزائر سفر رفقة نحو ثلاثين من غير المزابيين، أكثرهم من الشعانبة، وفيهم بعض المخادمة وبعض من المذابيح. وبعد نحو مرحلتين من ناحية الجلفة التقوا بجيش، فوجه أمرا إلى المزابيين بدفع ثلاثمائة ريال وأنواعا من السلعة عينوها، فرفضوا ذلك، فأراد الجيش أن يهاجمهم، فانحاز الشعانبة ومن معهم المذابيح إلى المزابيين، فانتهت المعركة بغلبة المزابيين وحلفاءهم.(35)

وإثر ذلك عقد التجار المزابيون في 1052ه- 1642م مؤتمرا بالجزائر بباب الواد وقرروا فيه:

- ضم المالكية بمزاب إلى مجموعة الاباضية التجار بالجزائر في اجتماعاتهم.
- الإذن لهم بدفن أمواتهم معهم في مقبرة سيدي بنور.
- عقد رفقات السفر معهم من مزاب إلى الجزائر، ومن الجزائر إلى مزاب.
- التعاون بين الطرفين في جميع المهمات، كإعانة كل ضعيف بما يمونه ويبلغه إلى وطنه.
- التحالف ضد كل عدو يحارب الجزائر ويهاجمها.
- التعاون على كل ما يحتاجه مزاب مما يرتبط بالجزائر سياسيا أو اقتصاديا.

ص . ص 263 - 288
رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com

5- أعيان مجتمع وادي ميزاب وترميم العلاقات الاجتماعية مع الآخر:

إنّ الفترات الزمنية المضطربة التي مر بها مجتمع وادي ميزاب، جعل الميزابيون يفكرون مليا في احتواء أزمة الفتن بينهم وبين الآخر، أي الاقتتال بين الصف الغربي والصف الشرقي، وهذا باقتراح هيئة العزابة لجملة من الاقتراحات للحد من المناوشات بين الصفين منذ بداية القرن الخامس عشر ميلادي، داخل مجتمع وادي ميزاب وخارجه. وبذلك اتباع أسلوب المهادنة كأولوية لاستمرار النشاط التجاري الميزابي في بناء مدن المجتمع المحلي وتوسيعها.

وفي هذا الصدد يقول باكلي عبدالرحمان أنه من خلال هذه العلاقات الاجتماعية السلبية بين الطرفين، اهتدى الإباضية إلى ضرورة اتخاذ وسائل:

- اتخذوا من بعض تلك القبائل أحلافا يستعينون بهم على دفع اعتداء القبائل الأخرى.

ونتيجة للسلب والنهب الذي كانت تتعرض له القوافل التجارية الميزابية القادمة من الشمال، فرض على الميزابيين عقد تحالف دفاعي وتعاوني مع بعض الاعراش من "المخاليف" و"الارباع" و"أولاد نائل" لحماية القوافل والأموال من قطاع الطرق ومن النهب فيما بين الصحراء والتل، ويدفعون لهم نصيبا من المال يقع الاتفاق عليه بين الأطراف، وبهذا التحالف أصبح الطريق مأمون نوعا ما طوال الحكم العثماني وفي فترة الاستعمار الفرنسي.(36)

- فتحوا أسواقهم في وجوههم فسهلوا لهم المعاملات التجارية، وتبادل المصالح عن طريق المقايضة، يجلبون محصول البادية من أغنام وألبان وسمن وصوف وشعر ووبر وجلود وحطب وأعشاب وغيرها، فيبادلونهم ثيابا وحبوبا وتمورا وغيرها من حاصلات الحضر.

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 263 - 288
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com

- يحسنون إلى محاوجهم وضعافهم بالصدقات المتنوعة، وتجد نسائهم مجالا لبيع الأطباق والأوطاب والكسكاس وغيرها، ويأخذن بدلا من ذلك دقيقا وقمحا وتمرا وثيابا لهن ولأولادهن.

- يتخذ الإباضية الشتاء موسما لتوزيع أوقاف المقابر نظرا لعطلة أغلب السكان عن العمل وشدة احتياجهم أيام البرد، فنرى جموع الأعراب أخذوا نصيبهم منه، وأن الواحد منهم لينال منه أحيانا ما يكفيه قوتا لكامل أسبوعه، أي حتى يعاد توزيع الصدقات إذا كان مقتصدا.

- يتخذ الإباضية الأغنام ويودعونها عند العرب فيستفيد منها الطرفان، وقد يبعدها المودعة عنده ويدعي موتها أو فقدها فتبقى له.

- يهادنونهم ويمونونهم ويضيفونهم كلّما حلُّو بالبلد.

- ظهر بعض الأغنياء الأسخياء في البلد فعم إحسانهم من يؤم قراهم من أي عرش كان، سيما رؤسائهم، فكان لهذا الإحسان أثره المحسوس في إزالة الضغائن من الصدور، وكان بمثابة درع حصين يقي سكان الوطن من غارات بعض القبائل، وكثيرا ما يجر لهم أصدقاء وأنصارا. (37)

- كان دفع الاتاوة الى البدو، كان يتم في بعض الأحيان من طرف مجلس المدينة في مختلف مدن مزاب، ويظهر هذا بوضوح من خلال اتفاق جماعة غرداية سنة 1115 ه (1703 م): " واتّفقوا على الخطيّة التي يحكموا بها على الناس فلا يأكلوا منها شيء توضع عند الأمين ويصرفوا منها مظالم البلاد ، يعني فيما يلزم على البلاد الى الغير مثل الرقاس أو كبير من كبراء العرب الذي يجلب الصلاح الى البلاد".

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
ص . ص 263 - 288
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com

بعد تتبع طبيعة العلاقات الاجتماعية بين المزابيين وجيرانهم، تبين أن العلاقات الاجتماعية كانت سلبية أكثر منها إيجابية، وهذا بسبب تعدد العوامل المؤدية إلى الصراع بين أفراد المجتمع؛ كالماء، والتنافس على احتكار الفضاء التجاري والمكانة الاجتماعية. كما أن أسلوب الصراع شهد تحول من قترة إلى فترة أخرى؛ فنجد أن الطرد والمقاطعة بين عشائر وادي ميزاب كان في القرن 15م، ليتحول إلى أسلوب القتل من أجل تهديد الآخر بالخضوع له في فترة الاستعمار، بالرغم من اتباع المزابيين استراتيجية حسن الجوار من خلال عقد تحالفات اجتماعية وعسكرية مع جيرانهم من أجل تجاوز حاجز الصراع في المجتمع.

الاحالات والهوامش:

1 - علي يحيى معمر، الاباضية في موكب التاريخ، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، عمان، ج4، ط3، 2008، ص ص 219، 220.

2 - بالحاج معروف، العمارة الإسلامية: مساجد بني ميزاب ومصلياته، دار قرطبة للنشر والتوزيع، ط1، 2007، ص 65.

3 - يوسف بن بكير الحاج سعيد، تاريخ بني مزاب، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص 71.

4 - نفس المرجع، ص 72.

5 - بالحاج معروف، مرجع سابق، ص 67.

6 - مفدي زكرياء، أضواء على وادي ميزاب، منشورات ألفا، الجزائر، ط1، 2010، 117.

7 - بالحاج معروف، مرجع سابق، ص 66.

8 - يوسف بن بكير الحاج سعيد، مرجع سابق، ص 73.

9 - بالحاج معروف، مرجع سابق، ص 62.

10 - يوسف بن بكير الحاج سعيد، مرجع سابق، ص 84.

11 - بعمارة عيسى، اتفاقيات المجالس العامة لميزاب 1405م- 1928م، دار الشهاب، الجزائر، 1982، ص ص، 37، 38.

12 - ناصر بالحاج، النظم والقوانين العرفية بوادي ميزاب في الفترة الحديثة، أطروحة دكتوراه، 2014، ص 65.

13 - يوسف بن بكير الحاج سعيد، مرجع سابق، ص ص 76، 77.

*- البريانيين نسبة إلى منطقة بريان إحدى المدن الميزابية التي تبعد عن مركز المدينة ب: 43 كلم وعن مدينة القرارة ب: 73 كلم.

14 - مفدي زكرياء، مرجع سابق، ص 151.

15 - يوسف بن بكير الحاج سعيد، مرجع سابق، 102.

16 - حمو محمد عيسى النوري، دور المزابيين في الجزائر قديما وحديثا، مطبعة البعث، الجزائر، مجلد 1، ص 130.

17 - COMMANDANT TERRIER, UNE SECTE MINORITAIRE DE L'AFRIQUE DU NORD, CENTRE DE DOCUMENTATION SAHARIENNE, GHARDAÏA, 1939, P 18.

18 - IBID,P 18.

19 - ناصر بالحاج، مرجع سابق، ص 83.

رت م د :2353 - 0367
رت م د إ: 2602-5507
البريد الالكتروني:
Jepense84@gmail.com
ص . ص 263 - 288
طبيعة العلاقات الاجتماعية بين المزابيين والآخر
من بداية القرن الخامس عشر ميلادي إلى نهاية
القرن التاسع عشر ميلادي.

20 - حمو محمد عيسى النوري، مرجع سابق، ص 124.

21 - ناصر بالحاج، مرجع سابق، ص 64.

22 - نفس المرجع، ص ص، 66،65.

23 - نفس المرجع، ص 68.

** نسبة إلى أهل القرارة وهي مدينة من مدن ولاية غرداية تبع عن العاصمة حوالي 600كلم.

24 - صالح بن عبدالله أبو بكر، القرارة من دخول الاستعمار الفرنسي إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى 1882- 1921، جمعية التراث، الجزائر، الجزء الثاني، 2015، ص 203.

25 - حمو محمد عيسى النوري، مرجع سابق، ص 104.

26 - القرادي أيوب إبراهيم، رسالة في بعض أعراف وعادات وادي مزاب، جمعية النهضة، الجزائر، ط1، 2009، ص 34.

27 - ناصر بالحاج، مرجع سابق، ص112.

28 - نفس المرجع، ص 110.

29 - نفس المرجع، ص 111.

30 - نفس المرجع، ص 112.

31 - علي يحيى معمر، مرجع سابق، ص 236.

32 - مفدي زكرياء، مرجع سابق، ص 106.

33 - ناصر بالحاج، مرجع سابق، ص 108.

34 - يوسف بن بكير الحاج سعيد، مرجع سابق، ص ص 60. 61.

35 - نفس المرجع، ص 48.

36 - حمو محمد عيسى النوري، مرجع سابق، ص 58.

37 - علي يحيى معمر، مرجع سابق، ص 221.